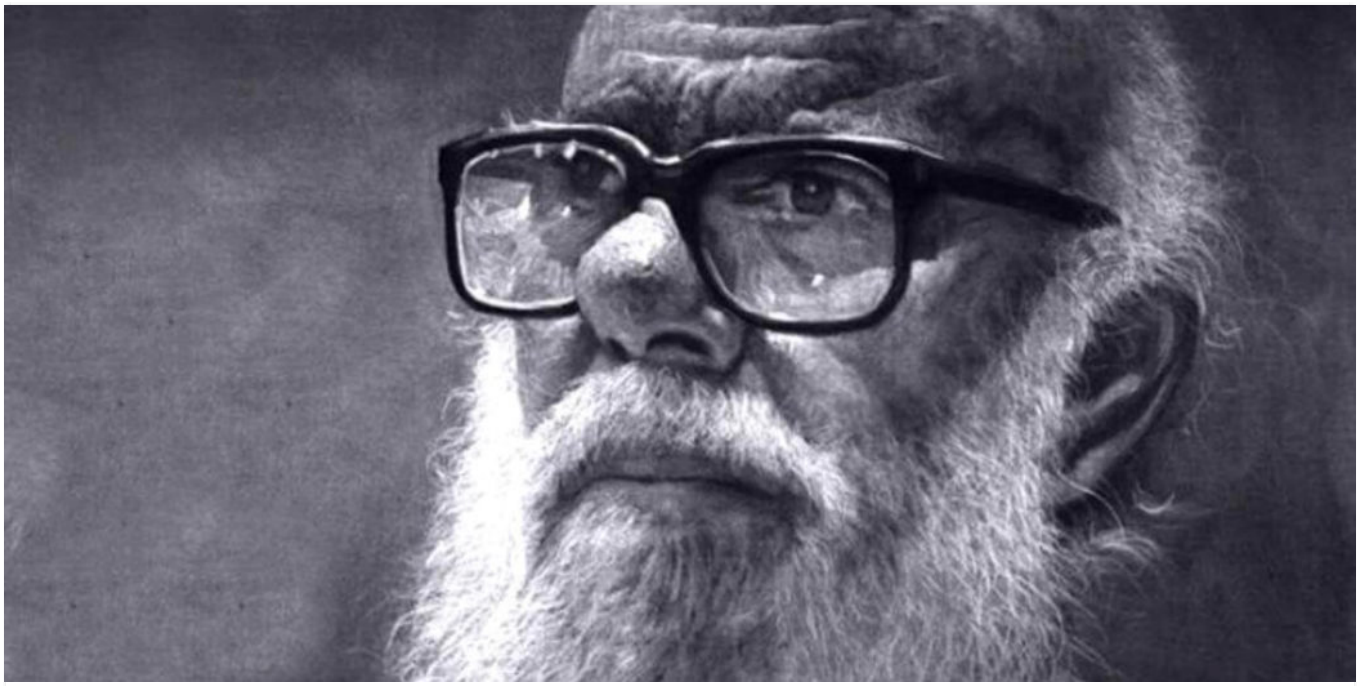

مصطفى الحلاج.. حصان الميثولوجيا.. بقلم الفنان التشكيلي غازي أنعيم

kkh يونيو 20, 2020 ثقافة وفنون, منشورات 427 زيارة

يعد الفنان التشكيلي العربي الفلسطيني الراحل (مصطفى الحلاج 1938 - 2002 م)، الذي ولد في قرية (سلمة ـ قضاء يافا) بفلسطين، من عمالقة فن (الغرافيك) العربي الثلاثة (الحسين فوزي 1905 - 1998 م) و (فتحي احمد 1939 م)، ولا أبالغ إن قلت أن (الحلاج) يعد أبرزهم، ليس على الصعيد العربي فقط، بل وعلى الصعيد العالمي، لأنه لم يتفرغ أحد للطباعة عن ألواح خشب (الموزانيت) لسنوات على الصعيد العالمي وينتج ما أنتجه الحلاج من أعمال (غرافيكية) متميزة على هذه التقنية والتي ستبقى مبعث إلهام ودراسة لكثير من الفنانين والنقاد والمهتمين بالفن.

كان الحلاج ابن عائلة ريفية بسيطة تعمل في الأرض وتعيش مما تنتج، وكان يلعب مع أطفال قريته في حقول وبيارات قريته الوادعة والجميلة، لكن الحلاج كان يحب أن يلعب تحت شجرة (السدر) الموجودة أمام بيته، هذه الحياة الهانئة لم تستمر فقد وقعت النكبة عام 1948 م، واغتصبت الأرض وشرد الشعب، وطرد الطفل الذي لم يتجاوز في تلك الأيام العشر سنوات مع عائلته التي اختارت أن تتوجه إلى مصر العربية، وبقي الأمل بالعودة قائماً، فالمسألة كانت عند الطفل وعائلته، شهر شهران، سنة سنتان، ولكن الانتظار طال، فبقيت الأماكن والأسرار المحيطة بها عالقة في ذاكرة الحلاج كالأسطورة.

في بداية الخمسينات عاش الحلاج في الريف المصري، ودرس في مدارس القاهرة، ووضع برنامجاً تثقيفياً لنفسه، فكان يسير مسافات طويلة ليستعير كتاباً، حيث كانت المعرفة بالنسبة له نهماً لا يرتوي، فكان يقرأ كل ما تقع على عيناه، وكانت الرياضيات والمنطق والفلسفة من أحب الكتب إلى قلبه.

وفي عام 1952 م، وضع لنفسه برنامجاً للقراءة والكتابة اليومية، فكتب القصة والقصيدة وبدأ بالرواية، بعد ذلك أدرك أن الجانب البصري أقوى شيء

عنده، فبدأت موهبته الفنية تتطلع عام 1958 م إلى كلية الفنون الجميلة (قسم النحت).

وفي عام 1963 م، تقدم بمشروعه النحتي للبكالوريوس الذي استقاه من إحدى رباعيات (فاغنر) واسمها (الغسق)، حيث كانت الأبعاد المتنوعة في موسيقيا (فاغنر) تعطي للحن وجوده المميز القوي عبر الإيقاع العام.

بعد تخرجه اخذ الحلاج يتشبع بالرسوم والرموز المصرية القديمة والفلسطينية، الأمر الذي أثّر في أعماله النحتية الأولى، حيث شعر بأن كل ما هو محيط به ثقل ضاغط عليه، فجاءت تماثيله مضغوطة قصيرة، ليست في نسبها فقط، ولكن بالإيحاء الكلي لها، ومرت مرحلة أخرى، كان يشعر وكأنه ملتصق إلى الأرض، وهنا استطالت الأشكال ولم يبق فيها غير الصرخة.

في عام 1968 م، أنهى الحلاج دراسته في مراسم الدراسات العليا بالأقصر، وتحول من النحت إلى(الغرافيك) والرسم والتصوير، ولم يشعر ببعد أو عزلة عن هذه الفنون التي مارسها، لأن النحت والحفر على الخشب (الموزانيت)، هما من حيث القيمة البصرية أبوان للأبيض والأسود.

وبعد السبعينات، ظل تأثير الفرعونيات في لوحاته بارزاً من خلال الرمز الذي طغى في كل نتاجه اللاحق، وقد شغل الرمز في لوحاته مركزاً هاماً، سواء من حيث الشكل أو المضمون، فتنوعت موضوعاته ورموزه وعناصره ومعالجته الفنية.

وكان التطور الهام في تجربته هو في استخدامه للرمز، مثل: " الديك، الحصان، الأفعى، الثور، الشمس... الخ ". وتكرار الرمز بشكل دائم في أعماله الفنية، له معاني ودلالات خاصة في اللوحة، سواء كان شكلاً أم لوناً أم خطاً كما يقول الحلاج.

وينطبق هذا الكلام على استخدام رموز الأشكال البشرية والزخرفية المختلفة، ولهذا يقول الحلاج:"أن الشكل أو اللون أو الزخرفة تعكس كلها دوماً معنى أو تؤدي وظيفة حسب وضعها أو طريقة معالجتها أو توظيفها في اللوحة ".

كما وظّف الأسطورة في أعماله الفنية من خلال رسمه للإله الكنعاني " داجون " ليقول بأن الفلسطيني المعاصر لا يدافع عن الأرض والإنسان فحسب، بل يدافع عن حضارته التي يرتبط بها كل الارتباط.

بعد اجتياح بيروت عام 1982، من قبل الصهاينة، توجه الحلاج إلى دمشق التي أحبته وأحبها واستقر بها، وقد سبق وأن أقام الحلاج فيها في بداية السبعينات من القرن الماضي، وأثناء إقامته ساهم في الكتابة والرسم في ملحق جريدة الثورة الثقافي قي بداية صدوره أواسط السبعينات، وشكّل مرسمه حتى رحيله مركز استقطاب للعديد من الفنانين والكتاب والأدباء والشعراء العرب الذين كانوا دائمي التردد عليه، كما كان مركز استقطاب للعديد من الشبان الذين استفادوا من تجربته وخبرته وثقافته.

في هذه الفترة وبعد التشاور مع فناننا الكبير (الحلاج)، تم تشكيل مجموعة فنية تتكون من (مصطفى الحلاج) وكاتب هذا المقال والفنان (عبد الحي مسلم) وممثل المسرح والدراما الفنان التشكيلي (محمود خليلي)، وفي عام 1987 م، قررنا تأسيس صالة عرض للفنون التشكيلية، أطلقنا عليها اسم الفنان الشهيد (ناجي العلي)، واخترنا الفنان الراحل (الحلاج) مديراً لها، وبعد مغادرة كاتب المقال والفنان (عبد الحي مسلم) لمدينة دمشق إلى عمان عام 1993 م، وانشغال الفنان (خليلي) بالتمثيل، تحولت الصالة فيما بعد كمرسم وبيت ومنتدى للفنان الحلاج.

في التسعينات من القرن الماضي نشط الحلاج في مجال الدراسات النظرية المتعلقة بالفن والرسم والتصوير والحفر وشارك في كافة المعارض الفلسطينية والسورية، وتوج هذا النشاط بمعرض شخصي له أقامه عام 1993 م، في صالة " أرابيسك " العائدة للكاتبة السورية (د. ناديا خوست)، ثم أقام معرضاً آخر عام 1994 م، في صالة بلدنا في عمان، وقد استخدم الحلاج في هذين المعرضين تقنيات مختلفة من:" زيت، مائي، أحبار، حفر وباستيل".

في عام 1995 م، تم تكريم (حصان الميثيولوجا ـ الحلاج)، في الشارقة، وقد كُتب في كاتالوج التكريم:" لقد تقمصت فلسطين مصطفى الحلاج على نحو خلاق فارتداها ومشى بين الناس لعقود يؤذن بالوطن.. أيها الحصان العاصف، أيها الحلاج.. اذهب إلى الكنعانية وحدث ببوحنا، فأنت بوحنا العربي لوطن.. وطن.. وطن..".

في عام 1996م، بدأ الحلاج بتنفيذ مشروع جدارية " تداعيات وارتجالات الحياة "، التي تتحدث عن تاريخ وأرض وشعب فلسطين وما حل بهم تشريد ونكبات، بالإضافة إلى طفولة وحياة الحلاج بما فيها من فرح وحزن، وكان ينوي الحلاج كما يحدثني في جلساتنا – كانت شبه يومية ودائمة – أن يكون للوحة متحف مستقل على شكل (لولبي) بحيث يدور المشاهد حولها، كما كان ينوي الحلاج بعد أن قام بتصوير كافة مراحلها بدخولها ضمن موسوعة " غينيس " للأرقام القياسية، بوصفها أطول لوحة في تاريخ الغرافيك، لكن أحداث 11 سبتمبر من أيلول حالت دون تنفيذ الاقتراح، كما كان الحلاج أيضاً ينوي الاستمرار في العمل في هذه الجدارية التي وصل طولها إلى (100) متر، حتى آخر يوم في حياته، وكان للحلاج ما أراد إذ ترجل قبل أن يكملها.

المتأمل لأعمال الفنان الراحل الحلاج في مشواره الطويل يلاحظ أن مفردات أعماله مستوحاة من البيئة الشعبية التي تشبعت روحه بها عبر عشرات السنين وهذه المفردات تأخذ في كل عمل فني، مضموناً جديداً تبعاً لما يريد الفنان التعبير عنه، فلا تخرج مفرداته في غالب الأحيان عن المناظر الريفية مثل: (الفلاحين، الأطفال، المرأة، الرجل، الحصان، الحمار، القط، الكلب، الديك، طائر الحمام، الشمس..)، هذه العناصر والمفردات استشفها الفنان من احتكاكه بها في طفولته.. فكل الأشياء التي تركها الحلاج في قريته (سلمة)، ما زالت باقية في مكانها وراسخة في عقله.

ومخيلة الفنان هنا تعتمد بالأساس على الرموز المعاصرة المرتكزة على التاريخ، كما أكد في بعض أعماله على مذاقه الشعبي في استلهام المشخصات الأسطورية التي استوحاها من الملاحم الشعبية كما في لوحات (أنكيدو، القمر، والكابوس).

ووصل الرمز في لوحاته إلى درجة الأسطورة مثل (الحصان) الذي يلعب دوراً كبيراً في أعماله، وهذا التكرار يكشف عن عمق ارتباط الفنان بشعبه، وهنا تكمن قيمة الحصان الذي يتغير معناه من عمل إلى آخر والتي قد تبلغ مرحلة الأسطورة.

كما اهتم الفنان الراحل برسم وجوه الناس مبيناً التعبيرات المختلفة التي تظهر عليها، هذا هو عالم الفنان وما يشدو به على مسطحات لوحاته، كل تلك العناصر مجتمعة تناغمت وتحاورت على مسطح اللوحة بتلقائية، فحملت الحس الشعبي وازدحمت اللوحة بالعناصر الشعبية كما في اللوحات المنفذة بتقنية الباستيل والموسومة بـ: (الفارسة، المضخة، الغسالة، الوعل والمورق، المظلة الواقية، أبو بديع، الخزانة والقط، مداعبة القط، الأعمى بائع الرمان، حصان وحمار، الغسالة والدراجة، حاملة الطعام للحقل، الحلاج، العمى وكلبه، طائر وسط دمار، الحمل، والجالسة على الكرسي..).

وفي تجربته قبل الأخيرة ركز الحلاج على استعمال الأرضيات ذات الألوان المذهبة، لما يعطيه هذا اللون من غنى وثراء مع إعطائه دفئاً شرقياً، خصوصاً لاستخدامه اللون الأحمر وألوان البنيات والأسود، كما أن هذه الألوان في مجموعها تعطي اللوحة إحساساً بالقدم الذي يذكرنا بِأصالة اللوحات القديمة وعمقها.

وأهم ما يميز هذه التجربة، هي أنها تنتمي إلى التعبيرية المرتبطة بالواقع وبالإنسان، وقد أكد الفنان هذه الحقيقة من خلال مئات اللوحات التي صور فيها الإنسان البسيط والمكافح، الإنسان (الرمز)، ومن خلال هذا الرمز استطاع فناننا الراحل أن يكوِّن أسلوبه ليعبر عن المضمون المنتمي إلى عصرنا، فالمضمون هنا هو الإنسان الذي يستعيد الماضي، وبه يمجد الحاضر.

والمتتبع لمسيرته الفنية، يلاحظ أن عناصر العمل الفني في لوحاته متنوعة وكثيرة، تفوح منها رائحة الماضي بما تحوي من عناصر ورموز في حياتنا اليومية، وفيها حشد لشخوص ذات أشكال مميزة وموظفة في بنائية ناجحة لها قوانينها المميزة ذات الربط المحكم مع عناصر مأخوذة من البيئة الشعبية تبدو وكأنها كتل نحتية.

كما تمتاز لوحاته برصانة الخطوط الأساسية للموضوع، التي تأخذ مكانها في ثبات لتؤكد ما يريد قوله الفنان، والتكوين عنده يتغير بتغير الموضوع، والذي أتى بعد بحث طويل للوصول بالعمل الفني إلى قمة تحققه الشكلي.

أخيراً رحل فناننا الكبير (مصطفى الحلاج)، في حوالي الساعة التاسعة من مساء الأحد 15 كانون أول 2002 م، في داخل مرسمه في دمشق أثناء محاولته إنقاذ فلذات أكباده (لوحاته)، إثر ماس كهربائي أدى إلى اشتعال المواد القابلة للاحتراق، فاحترق جسد الحلاج، لكن لوحاته ما زالت تغرد وتسرد

أسطورة شعبه وأمته وتحكي حكايته من على جدران المعارض والمتاحف، لقد شاء القدر أن تكون نهاية الحلاج بهذه الطريقة، ليصبح أسطورة الفن التشكيلي، وليبقى في الذاكرة رمزاً تتناقله الأجيال.

لقد أمضى فناننا الراحل، ما يربو على نصف قرن من الزمن في العطاء وفي النضال بالفن ومن خلاله، من اجل قضية شعبه ومستقبل أمته التي آمن بها وعمل من أجلها، وهو القائل:" كنت أؤمن أن الفن أداة كالسلاح، ودائماً كنت أقول إن الفن مطرقة من آلاف المطارق في ساحة المعركة التي تصنع المستقبل ".

أخيرًا كان الحلاج يحدثني، أن لوحاته ملك للشعب الفلسطيني، وهي تراث إنساني، ليس لأفراد أو ورثة، وكان من ضمن أحلامه بعد تحرير فلسطين أن يكون للوحاته الفنية متحف مستقل في القدس، تكون من ضمنه جدارية ارتجالات الحياة ووفق تصوره، فمتى تتحقق هذه الرغبة؟

.....

غازي أنعيم :

فنان تشكيلي فلسطيني/أردني 1960 يشغل منصب رئيس رابطة الفنانين التشكيليين الأردنيين تخرج بكارليوس فنون جميلة قسم النحت عام 1985 من جامعة دمشق، يمارس الرسم الزيتي و فن الغرافيكي كما يكتب النقد التشكيلي و يمارس الإخراج الصحفي، وقد أقام عدة معارض خاصة في الوطن العربي، وشارك في 82 معرضاً جماعياً في الفترة ما بين 1979-2000